

9

.....

كيف يستجيب الأطفال للشدة

.....

تعتمد استجابة الأطفال للشدة على عوامل عدة مختلفة، من ضمنها إدراك الطفل لحالة الشدة، وكمية الشدة التي يتعرض لها، وتوفر آليات تكيف فاعلة. وبهذا فإن استجابة الأطفال لشدة حادة شأن فردي بعض الشيء. يقول المثل «إن الماء الذي يغلي يجعل البيضة قاسية لكنه يطري الجزيرة». هذا المثل، وسواه، يؤكد حقيقة أن الشدة التي تتسبب في تداعي شخص ما تقوي عزيمة شخص آخر.

وليس من السهولة في شيء أن نتوقع استجابة طفل معين للشدة. فالأطفال يفاجئونك أحياناً. وقد رأيت مرة صبيّاً اتكالياً يصبح استقلالياً يعتمد على نفسه عندما واجه وضعاً يتطلب ذلك. ورأيت شاباً آخر ناجحاً في المدرسة وفي البيت على الرغم من أن والدته هجرت البيت ووالده يعاقر الخمرة باستمرار. ولكن عندما هدد بعض الفتيان ذلك الشاب وهو ينجز بعض الأوراق وسرقوا ما كان يحمله من النقود أصيب بالهستيريا وأدخل إلى المستشفى.

القلق المدوّم

ترجم الشدة الحادة لدى بعض الأطفال إلى ما أسماه فرويد «القلق المدوّم» بمعنى لأنه لا يرتبط بخشية أو خوف محدد. فالطفل يشعر بالقلق والضيق ويصبح عاجزاً عن التركيز لكنه لا يستطيع أن يحدد سبب ضيقه. وكثيراً ما نرى القلق المدوّم لدى الأطفال إثر انفصال أبويهم. فالأطفال في هذه الحالة لا يعرفون ما هو آت وجهلهم بالشيء الذي يخافونه هو ما يسبب القلق المدوّم. إليكم بعض الأمثلة:

أمضى شاؤول قرابة الساعة يتذمر غاضباً من الطلبات المفرطة التي يفرضها عليه معلم صف السادس. «كيف يتوقع أن أقوم بكل هذه الفروض وأنا مشغول الفكر بالطلاق؟ هذا ليس من العدل في شيء» كان شاؤول دائماً طالباً مجداً، لكنه لم يستطع أن يكمل فروضه أو يستعد للامتحانات. وعندما قرعه المدرس لتقصيره غادر غرفة الصف غاضباً كئيباً. هل أخبر مدرّسه عن آلامه؟ «لا» قال شاؤول «المعلم لن يفهم، إنه لا يهتم، وكل ما يريده هو الفروض». لقد تدخل حزن شاؤول وانشغاله الغاضب بطلاق والديه في قدرته على التركيز وها هو كل شيء يتداعى من حوله.

قالت مدرسة كارول في الصف الثاني إن الفتاة بدت مرتاحة ولا مبالية إثر انفصال والديها. ثم، بعد شهرين، بدأت كارول تبكي وتنتحب وغالباً ما كانت تستجدي ما لدى رفاقها. قالت المدرسة: «إنها تاكل غداءها في العاشرة صباحاً ثم تستجدي مزيداً من الطعام وقت

الغداء لأن طعامها قد نفذ».

قالت كارول لمدرستها إنها لم تعد تهتم بفروضها المدرسية ولم تعد لديها رغبة بالمساعدة في الصف. في الحقيقة إنها قالت بجزع «لا أريد أن أفعل أي شيء»^(١).

أدرج هذان المثالان ضمن دراسة أجريت على مدى سنوات خمس على 131 طفلاً، تتراوح أعمارهم بين ثلاث وثمانية عشر سنة، ممن عاشوا تجربة الانفصال والطلاق. وكما يوحى المثالان المدرجان أعلاه، فقد وجد ما يربو على 90 في المئة من الأطفال أن الطلاق يعتبر شدة فائقة. وقد سيطر قلقان رئيسيان على تفكيرهم: من الذي سيعتني بي (يحميني، ويطعمني، ويحبني)؟ وهل ستدوم علاقتي مع والدتي ووالدي؟ في جميع المستويات العمرية، شعر الصغار أنهم أصبحوا:

يواجهون عالماً أصبح فجأة أقل ثقة، وأقل اهتماماً بآمال وحاجات المستقبل. وعصف انشغالهم بالإحساس الجديد بالقلق حيال ما هو مقبل في الحياة بمعظم تفكيرهم وانتباههم. أظهر كثير من الأطفال حزناً وتوقفاً إلى الأسرة كما كانت، ولم يكونوا سعداء بكمية الوقت الذي يمضونه مع الوالد غير الحاضن. كما كان معظم الأطفال يحلمون بعودة المياه إلى مجاريها بين والديهما. وقد توافقت هذه الأمنيات بفهم ثقافي واضح أن الطلاق كان نهائياً.

كما كشفت الدراسة عن زيادة ملحوظة في التصرف العدائي. أصبح الأطفال يستثارون بسرعة أكبر، كما أصبحوا أقل تحكماً بانفعالاتهم، وأكثر عدوانية (بالصياح والتدافع) تجاه أندادهم واخوتهم مما كانوا في السابق^(٢).

كما تقدم دراسات أخرى الدليل على أن القلق المدوّم إذا ترافق مع شدة الانفصال والطلاق يؤثر على سلوك الطفل في المدرسة. وقد توصلت دراسة أجريت مؤخراً على نحو عشرين ألف طفل، من تلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية، في جميع أرجاء البلاد إلى اتجاهات عامة معينة ميزت الأطفال الذين يعيشون في كنف أحد الوالدين عن الذين يعيشون في ظل الوالدين مجتمعين⁽³⁾. حيث كان الأطفال القادمون من بيت يعيش فيه أحد الوالدين دون الآخر أدنى في إنجازاتهم الدراسية، وسجلوا تأخراً وغياباً أكثر من الأطفال الذين يعيشون في كنف الوالدين معاً. كما أن الأطفال الذين يعيشون في ظل أحد الوالدين دون الآخر يزورون المراكز الصحية أكثر، ويتلقون عدداً أكبر من التنبيهات حول النظام، كما كانوا يطردون من المدرسة أكثر من الأطفال الذين يعيشون في كنف والديهم. توحي هذه النتائج بوجود طرق مختلفة كثيرة تشير إلى أن القلق المدوّم الذي يرتبط بشدة الانفصال والطلاق، ينعكس من خلال تصرف الطفل في المدرسة. ولكن لا تنسوا أن هذه معدلات وسطية ولا تنطبق بالضرورة على جميع الأطفال الذين، عاشوا حالات الانفصال والطلاق.

قد يكون الانفصال العامل الرئيسي في القلق المدوّم عند أولاد المطلقين، ولكنه ليس العامل الوحيد. فهناك أحداث أخرى مرتبطة بالطلاق قد تعرض الأطفال لشدة لا داعي لها وتتركهم فريسة للقلق والاضطراب. نذكر على سبيل المثال

العدد المتزايد من الأطفال الذين يختطفهم الوالد الذي لا تحق له الحضانة ويحتفظ بهم. وقد قدر بأن نحو 100000 طفل يختطفون من قبل أمهاتهم أو آبائهم كل سنة، وأن خمسهم فقط يمكن العثور عليه. الشدة التي يتعرض لها الطفل المخطوف هائلة. إذ يعيش حالة ارتحال دائم. بصحبة أحد والديه القلق من أن يكتشف مكانه ويعيش الطفل بلا مدرسة دائمة أو صداقات مع أنداد. أولئك الأطفال يجبرون على النمو بسرعة، أما الذين يسترجعون في النهاية فتظهر عليهم الكثير من أعراض الشدة، تتجلى عادةً بالقلق المدوّم. تبين ذلك الحالة التالية:

في كانون الثاني/يناير من سنة 1979 اختطف جيمس كينيدي من قبل والده. وفي آذار/مارس 1981 قامت مدرسة يقظة، رأت صورة لجيمس نشرت في مجلة ليديز هوم جورنال Ladies Home Journal، بإبلاغ السلطات. وعندما أعيد جيمس إلى والدته كان هادئاً وخائفاً بينما كان في السابق جريئاً. ما زالت السننتان ونصف التي عاشها مع والده سرّاً. كانت بات كينيدي، والدّة جيمس تعرف أن «جيمس عاش في فلوريدا وماساشوسيتس وتينيسي وكونيكتيكت وبينسلفانيا، وأنه بقي لفترات قصيرة في فيرمونت ونيوهامبشاير. لقد سجل في خمس أو ست مدارس على الأقل وأودع في إحدى المرات لدى أحد معارف والده لمدة بضعة أشهر».

قالت المعلمة التي اتصلت ببات من بينسلفانيا «كان الولد الصغير وحيداً ومهجوراً بشكل واضح. وقد رأيت والده مرة يحمله عبر صالة مزدحمة في المدرسة من ياقته

وحزامه، ثم ألقى به في غرفة الصف فارتمى جيمي على الأرض. كان الولد يبكي بكاءً مرأً، فعرفت أن الأمور لا تسير سيراً حسناً في البيت».

بعد أن عاد جيمس إلى والدته عادت الحياة لتأخذ مجراها الطبيعي بالنسبة إليه، لكن آثار القلق المدوّم ما زالت.

«يبدو طفلاً طبيعياً محبباً - إلا أن حياته حتى الآن أبعد ما تكون عن الطبيعية. يمكنك أن تعرف من إجحاله المفاجيء إذ يسمع صوتاً في الخارج أن الخوف ما زال يسكنه.. الخوف من أن يختطف ثانية»⁽⁴⁾.

بالإضافة إلى الشدات التي ترافق الطلاق، قد تصل الشدة بأطفال اليوم إلى القلق المدوّم إثر مشاهدة أفلام أو برامج تلفزيونية ليس لدى الأطفال الاستعداد العاطفي لمشاهدتها. كما ينتشر القلق المدوم بين أوساط الأطفال الصغار الذين يستعجلون من جليلة الأطفال إلى مركز للرعاية النهارية إلى جليلة الأطفال. وقد يكون القلق المدوّم الذي يتخذ شكل الاضطراب وسرعة التهيج وعدم القدرة على التركيز والمزاج المنخفض هو الاستجابة الفورية الأكثر شيوعاً التي يبدوها الأطفال لشدة الاستعجال.

وتشير جميع المؤشرات إلى زيادة كبيرة في هذا العرض. حيث يتحدث أطباء الأطفال عن زيادة في عدد الأطفال الذين يعانون من آلام في المعدة والرأس يبدو أن لها علاقة بالشدة. وقد يتخذ القلق المدوّم لدى المراهقين شكل الكآبة وقد يؤدي

إلى الانتحار. ففي تورنتو، كما في كثير من المدن الكبيرة، كانت الزيادة في ارتكاسات الشدة بين أوساط الجيل الفتى كبيرة لدرجة أن أحدثت خدمات خاصة بالأطفال والمراهقين للعناية بهؤلاء اليافعين. تقول الطيبة النفسانية ديان سيار Diane Syer، العاملة في طاقم وحدة التدخل في الأزمة في مشفى تورنتو إيست جنرال Toronto East General Hospital إن هذه النزعة يمكن إرجاعها إلى تفكك العائلة وتداعي المؤسسات الاجتماعية كالدين وتعبئة الناس في مجتمعنا، والإحساس السائد أن المستقبل سيكون قاتماً⁽⁵⁾.

التصرف أ

عرف منذ فترة طويلة أن بعض الراشدين يتكيفون مع الشدة بنمط مميز من الشخصية. هذا النمط، وهو النموذج أ، يتضمن التنافس في الإنجاز، والسعي الدؤوب، ونفاد الصبر، والعدوان لفظاً وفعلاً. وتميز هذه الأنماط من الشخصية عن سواها إما بالاستجواب السريري أو بواسطة استبيان. نوع آخر من الشخصية هو النموذج ب، يعرف بغياب مقومات النموذج أ. وتأتي خطورة النموذج أ من أن الأشخاص الذين يحملون مواصفاته يتعرضون للإصابة بمرض القلب الاكليلي ضعف احتمال إصابة أشخاص النموذج ب به.

وفي السنوات الأخيرة تمكن الباحثون من تحديد أطفال من النموذج أ والنموذج ب من الشخصية. وقد خلص أحد

الأبحاث إلى أن أطفال النموذج أ يتفاعلون مع الشدة بطريقة مشابهة لراشدي النموذج أ. أي أن أطفال وراشدي النموذج أ يشعرون بأنهم يفقدون السيطرة على وضع يهتمهم فعلاً، فيبدلون جهداً جباراً للامساك بزمام الأمور. إلا أن أطفال وراشدي النموذج أ لا يختلفون عن راشدي وأطفال النموذج ب عندما يشعرون بأنهم يسيطرون على الوضع سيطرة تامة. وتظهر صفات النموذج أ عندما يشعر الشخص أنه قد يفقد السيطرة على وضع مهم⁽⁶⁾.

وقد قام بإيضاح ما لهذه النتائج من أهمية الدكتور جيرالد بيرينسون Gerald Berenson وزملاؤه في جامعة ولاية لويزيانا، الذين فحصوا 378 طفلاً تتراوح أعمارهم بين سنتين وسبع عشرة في فرانكلتين، لويزيانا وهذا مجرد جزء من عينة أكبر في دراسة طويلة الأمد لنحو 6,000 إلى 7,000 من اليافعين في لويزيانا. كان هدف الدراسة هو التأكد عمّا إذا كان تصرف النموذج أ في الأطفال له الارتباط الفيزيولوجي نفسه الذي يبدو أنه يجعل الراشدين من النموذج أ أكثر عرضة لآفة القلب الاكليلية. وأتت النتيجة مثل التوقعات - نسبة الكولسترول في دم أطفال النموذج أ أعلى منها في دم أطفال النموذج ب. وخلص الباحثون إلى أن: «هناك احتمال كبير بأن سمات شخصية وتصرفات معينة (كالتنافس، والشراسة، والتملل)، تظهر عند الأطفال، تؤثر في التطور المبكر لآفة الشريان التاجي وارتفاع ضغط الدم الأساسي». وبناءً على نتائج دراسة لويزيانا قال الدكتور دبليو

بي. كانيل Kannel W. B. الباحث المرموق في تصرف النموذج آ. لدى الراشدين، إن «دراسة لويزيانا قد تظهر أن أنواعاً من مرض القلب تتشكل في الطفولة قد زالت»⁽⁷⁾.

يلفت الانتباه بشكل خاص فيما يتعلق بسلوك النموذج أ لدى الأطفال أن بعض الأبحاث تربط أساليب التربية التي تتبعها أمهات من النموذج أ والنموذج ب بأبنائهن من النموذج أ والنموذج ب. وقد كتبت كارين ماثيوز Karen Matthews الطبية النفسية في جامعة بيتسبورغ.

كشفت النتائج أن أبناء النموذج أ عوملوا بطريقة مختلفة عن أبناء النموذج ب. فالأمهات من النموذج أ والنموذج ب أعطين تقييمات إيجابية في أداء مهامهن تجاه الأبناء من النموذج أ أقل من أبناء النموذج ب، كما أن أبناء النموذج أ دفعوا بشكل أقسى من أبناء النموذج ب، خاصة من قبل أمهات من النموذج ب. ففي الحالة الأخيرة تقول الأم مثلاً: «لقد أحسنت، ولكن في المرة المقبلة يجب أن نحاول الحصول على 5» (درجة أعلى في الامتحان الذي أجراه الابن)⁽⁸⁾.

لا يمكن التمييز بسهولة دائماً بين المسببات والنتائج في دراسات كهذه، لكن المؤشرات توحي بأن استعجال الأبوين قد يكون له علاقة بالسلوك من النموذج أ لدى الأطفال.

لعل المعنى الأكثر خطورة المتضمن في هذا البحث هو أن أنماط الاستجابة للشدة التي تترسخ في الطفولة يمكن أن تنقل

إلى مرحلة الرشد وتصبح تلقائية. فالأطفال المستعجلون مثلاً قد لا يظهرون أعراضاً خطيرة في طفولتهم لكنهم قد يحملون معهم أنماطاً من الارتكاس العاطفي قد تؤدي إلى أمراض خطيرة وهم في مرحلة الرشد. فالطفل الذي يُصاب بصداع الشدة قد يصاب بالصداع النصفي عندما يغدو راشداً. كما أن الشدة المفرطة إبان الطفولة قد يكون لها آثار مدى الحياة تتكشف في أنماط من ارتكاس الشدة تلازم الشخص اليافع طوال حياته.

ضغط المدرسة الساحق

عندما تدفع الوظيفة بالموظف إلى وضع من الشدة المستمرة والحادة يتحول ذلك العمل في النتيجة إلى «عمل مدمر». وما يحدث عادةً هو أن الموظف يفقد كل حماسه ويكره الذهاب إلى العمل ويصبح إما نوماً لا مبالياً يشعر بالتعب بشكل دائم أو متوتراً يفيض بالطاقة العصبية طوال الوقت. هذه الأعراض الجسدية، كنوبات الصداع الناجمة عن التوتر وضغط الدم المرتفع أو أعراض سلوكية كتعاطي المخدرات والكحول، أعراض شائعة. تؤدي في النهاية إما إلى أن يترك الموظف العمل أو يطرد منه.

الذهاب إلى المدرسة هو وظيفة أو مهنة الأطفال والمراهقين. والمدارس، كما رأينا، ذات توجه أكاديمي، لا بد للأطفال فيها من تعلم المهارات والمعارف الأساسية في العلوم والدراسات الاجتماعية والأدب. لكن لا يمكن القول إن جميع

الناشئين لديهم اهتمامات أكاديمية، وحتى المهتمين فعلاً ربما لا يتعلمون بالشكل الأمثل في ظل برنامج المدرسة المبني على التنافس والذي تنظمه الامتحانات. فالناشئون الذين ربما كانوا مهتمين بالزراعة أو تربية الحيوان أو التشجير أو النجارة أو التمديدات الصحية أو الميكانيك سيجدون في اندفاع المدرسة الأكاديمي، خاصة في المدارس الثانوية، ما يدعو إلى الاحباط. كما يحبط الطلاب الذين لا يستطيعون مواكبة الضغط الأكاديمي المستمر.

المدرسة، بالنسبة لأولئك الناشئين، أشبه بفرصة عمل سيء. تفرض عليهم شدة حادة. وتبدأ أعراض الضغط المدرسي الساحق بالظهور. وغالباً ما يكره أولئك اليافعون الذهاب إلى المدرسة ويبقون في بيوتهم بسبب المرض كلما أمكنهم ذلك. وكثيراً ما يتأخرون أو ينقطعون عن الدراسة. ويبدأ كثير منهم باللجوء إلى الكحول والمخدرات ويعمدون بين الفينة والأخرى إلى التخريب في المدرسة أو يشوهونها بكتابات graffiti فجة. وبالتالي فإنهم يتركون المدرسة بمجرد تمكنهم ذلك دون خرق الأنظمة. بعضهم قد يصبح ما يسمى «الحاضر الغائب»، يتسكع داخل المدرسة دون أن يدخل غرفة الصف.

والطلاب الذين ينفرهم ضغط المدرسة نادراً ما يعودون لمتابعة الدراسة والحصول على شهادة الدراسة الثانوية. وقد أظهرت دراسة عن المتخلفين عن متابعة الدراسة الثانوية أن نحو 75 في المئة من الذكور اتبعوا نوعاً من أنواع التدريب العسكري

والبقية حصلوا على وظائف لا تتطلب مهارات أو دربوا في مكان عملهم. أما الشابات اللواتي تخلفن عن الدراسة فأصبح نحو 40 في المئة منهن ربات بيوت و30 في المئة أصبحن سكرتيرات أو بائعات.

وقد حدد روبرت ال. فينينغا Robert L. Veninga وجيمس بي. سپرادللي James P. Spradley في دراسة أعدها ما قالاً إنه خمس مراحل في العمل الضاغط:

- 1 - شهر العسل. 2 - نقص الوقود. 3 - أعراض مزمنة.
- 4 - الأزمات. 5 - ضرب الجدار. يبدو أن المراحل نفسها تقريباً يمر بها الناشئون الذين خضعوا لضغط المدرسة الخانق⁽⁹⁾. يبدأ الطفل المدرسة بشوق وسعادة ترافقهما آمال عالية (شهر العسل). ولكن سرعان ما يؤدي الحث الذي لا ينتهي على التعلم في بيئة غير داعمة، إضافة إلى قوة التنافس، بالشخص الفتى إلى سحب احتياطي طاقته الذي لا يرمم دائماً. والنتيجة (نقص الوقود) تتجلى في استياء الطفل من المدرسة وإحساسه بالتعب كما يتدنى أدائه ويصبح نومه مضطرباً.

وعندما يضطر الأطفال إلى جر أنفسهم إلى المدرسة يوماً إثر يوم لمواجهة فشل إثر فشل، فإنهم يطورون أحياناً أعراضاً مزمنة، قد تكون جسدية أو نفسية فأعراض الحساسية مثلاً تتضخم بالشدة المزمنة التي لا تنفرج. كما أن التعرض للحوادث والمرض قد تكون نتائج جانبية لشدة المدرسة التي

لا يخفف من رتابتها شيء. وقد يكون الصداع والقرحات والقولنجات من بين الأعراض أيضاً. ويظهر بعض الأطفال أعراضاً سلوكية كالتسلط العدواني أو الانسحاب الانعزالي. وهناك آخرون «يتذرعون بالحجج الكاذبة» ويخترعون مبررات وأعداء لا نهاية لها لفشلهم المتكرر في المدرسة.

كما أن المبالغة في اللجوء إلى المخدرات والكحول من أعراض ضغط المدرسة. إليكم هذه الرواية التي نشرت في هارتفورد كورانت Hartford Courant :

كان الطلاب الأربعة الذين يربضون وراء سيارة في مرآب سيارات الزوار في مدرسة هول الثانوية في ويست هارتفورد يستعدون للامتحان.

لكن لم يكن أي منهم يحمل كتاباً مفتوحاً أو يراجع كراساً، وإنما كانوا يتبادلون سيجارة ماريغوانا فيما بينهم.

قال أحد الطلاب «إننا نمرح ونشمل قليلاً» وقال الآخر «نسترخي كي نستطيع أداء امتحان جيد، فلا بد لنا من الحصول على علامات جيدة»⁽¹⁰⁾.

عرض آخر من أعراض الاستنزاف المدرسي الأولي هو الغش المزمّن. وهاكم رواية أخرى من هارتفورد كورانت أيضاً:

في مدرسة ويست بورت ستابلز الثانوية كان خمسة شبان يقدمون امتحاناً في الحساب. كانوا يتلون في مقاعدهم لشدة الضيق والارتباك بينما مدرّسهم يتجول

في الغرفة متفقداً أداء الطلاب. كان الطلاب الخمسة يحنون رؤوسهم ويرفعونها إذ ينقلون أبصارهم بين ورقة الامتحان والمدرس ينتظرون أن يدير ظهره لهم. وعندما فعل غشوا بأن تبادلوا أوراق الامتحان. فهم أيضاً يريدون الحصول على علامات جيدة⁽¹¹⁾.

في المراحل الأولى من الضغط المدرسي يستبدل التحدي الأساسي والترقب المتحمس بالاستياء والتعاسة، التي تعالج بمجموعة من الأعراض أو صمامات الشدة. وإذا لم تعمل صمامات الشدة أو إذا استخدمت أكثر من اللازم ربما تتمخض عن أزمة. ما يحدث عندها هو أن الأعراض تصبح حادة لدرجة أن الشخص اليافع يضطر إلى ترك المدرسة والعودة إلى البيت أو يتدبر أمره بحيث يطرد من المدرسة إذ تصبح الشدة التي تسببها المدرسة شدة لا تطاق، تستهلك صمامات الأمان فتتوقف عن العمل.

إليك حالة تيموثي ك. (ليس اسمه الحقيقي):

كان تيموثي يتوق إلى الذهاب إلى المدرسة لأن أشقاءه وشقيقاته الأكبر سناً يتحدثون عن جميع الأشياء الممتعة التي يفعلونها هناك ويسخرون منه لأنه لا يعرف الأبجدية ولا يعرف العد. وهكذا ذهب تيموثي إلى الحضانة يدفعه شوقه إلى التعلم. لكنه بشكل أو بآخر لم يستطع أن يجعل أثر تلك العلامات يعلق على الورق. كان يخطئ التمييز بين حرف د ورقم 2 ويخطئ ترتيب أحرف الكلمات. كان الأطفال الآخرون يضحكون منه أحياناً دون أن تزجرهم المعلمة. وكان تيموثي يشعر أنها

هي أيضاً تضحك منه. لم تكن المدرسة ممتعة كما كان تيموثي يظن أنها ستكون. لم تكن ممتعة أبداً. وبدأ تيموثي يشعر بالتعب، وكانت أمه تجد صعوبة في إيقاظه في الصباح. أصبح متثاقلاً لا بد من استعجاله كي ينتهي من غسل وجهه وارتداء ملابسه وتناول إفطاره. ولو لم تكن أمه تحته كل لحظة لتوقف عما يفعله وبدأ ضائعاً في غيبوبة أو حلم من أحلام اليقظة. وكانت والدته تضطر دائماً لأن توصله إلى المدرسة لأنه كان يتأخر باستمرار. ثم أصبح يحجم عن مغادرة السيارة وبدأ وكأنه يجرجر نفسه ليصعد درج المدرسة. واستمر وضعه هكذا، وأظهر تيموثي آثاراً تنم عن نقص الوقود والأعراض المزمنة.

ثم في إحدى الأيام استدعيت والدته تيموثي إلى المدرسة على عجل. ولما دخلت غرفة المدير وجدت تيموثي يجلس بتحدٍ متشنج على كرسي، عيناه تلتمعان، وقد جمع قبضته بشدة وراح يعض بأسنانه على شفته السفلى. قالت المديرية «لدينا مشكلة. لقد تصرف تيموثي بوقاحة صريحة مع معلمته، لم يكتف بالرد عليها وإنما شتمها. وها هو الآن يرفض الاعتذار.» صعدت والدته تيموثي وألحت على تيموثي كي يعتذر فوراً لمعلمته التي كانت تقف هناك. إلا أن تيموثي لزم الصمت، وبقيت في عينيه تلك النظرة المتحدية. طلبت المديرية من والدته تيموثي أن تصحبه إلى البيت وألا تعود به قبل أن يصبح مستعداً لأن يقول لمعلمته إنه آسف وأن يتصرف بما يليق بطالب مسؤول.

لقد وصل تيموثي إلى مرحلة الأزمة في الضغط المدرسي الساحق، وأصبحت أعراضه خطيرة. عند هذه النقطة أتى تيموثي لمراجعتي. كان علي قبل كل شيء أن أخفف حدة جو الأزمة. كانت والدته تيموثي واثقة أن هذه هي نهاية العالم، وكان تيموثي يتمنى لو أنها كذلك فعلاً. تحدثت قليلاً عن أن تيموثي ليس فريداً من نوعه، وأن كثيراً من الأطفال يواجهون وقتاً صعباً في المدرسة، ويقولون أشياء بشعة، يرفضون التراجع عنها. كان تيموثي ووالدته بحاجة لأن يعرفا أنه ليس جسماً غريباً على الجنس البشري. وكل ما كان تيموثي يحتاجه كان أن يشعر بالرضا عن نفسه ثانية وأن بإمكانه أن ينجح في المدرسة. كان بحاجة لأن يستطيع أن يسامح نفسه قبل أن يستطيع أن يسامح معلمته ويقول لها إنه آسف.

المرحلة الخامسة من الضغط المدرسي الساحق أقل شيوعاً من المراحل الأخرى لأن معظم الأطفال يخرجون من الحالة قبل أن يصلوا إلى «نطح الجدار». وقد أخذ تعبير «نطح الجدار» من تجربة عداء المسافات الطويلة عندما يشعر أنه استهلك آخر قطرة من احتياطي طاقته ولم يعد قادراً على الجري خطوة واحدة. ذلك الشعور يشبه محاولة اختراق جدار إسمنتي. من الناحية العضوية يكون جميع سكر الدم (الجليكوجين) المخزن في العضلات قد نفذ، ويصبح الجسم متجففاً، وينخفض حجم الدم، يشعر الشخص بالدوار، والإعياء، وشلل العضلات، وأحياناً يشعر بالتداعي بشكل كامل.

وعلى الرغم من أن «نطح الجدار» ليس شائعاً إلا أن من الممكن أن تراه في طالب الثانوي الذي استعد لامتحانات دخول الكلية استعداداً أنهكه لدرجة لم يعد قادراً على تقديم الامتحان. ولا يكون ذلك الارتكاس محصوراً بمجموعة محددة من الامتحانات وإنما بالشدة التي تراكت عبر تاريخ طويل من تقديم الامتحانات التي استهلكت كثيراً من احتياطي طاقة ذلك الشخص اليافع.

الأغلبية العظمى من الناشئين الذين يذهبون إلى المدرسة ويتنافسون على العلامات والمنح الدراسية وما إليها لا يعرفون طبعاً الضغط المدرسي المرهق. فكثير من الناشئين ينتعشون فيما يبدو بشدة المدرسة والضغط الأكاديمي. والأمر لا يتعلق بشدة الدراسة فحسب وإنما كيف تفهم تلك الشدة وكيف تكون الاستجابة لها وذلك ما يقرر مدى تعرض الناشئ للضغط المدرسي المرهق.

العجز المكتسب

لعل أحد ارتكاسات الشدة عند الأطفال الذي طالما درس بشكل موسع هو «العجز المكتسب». العجز بشكل عام هو ما نشعر به عندما تخرج الأحداث المحيطة بنا عن نطاق سيطرتنا. أذكر، مثلاً، عندما كنت يافعاً أنني دخلت المستشفى لإجراء عملية جراحية بسيطة - استئصال كيسة حميدة. وعلى الطريق إلى غرفة العمليات وعندما بدأ تأثير المخدر علي سمعت الممرضة تقول: «لا بأس أيها الشاب، سنستأصل زائدتك في

لحظة واحدة». وأذكر أنني حاولت الاحتجاج لكنني كنت عاجزاً عن الكلام أو الحركة. وقبل أن أغيب تماماً أحسست بعجز عميق وفقدت السيطرة على ما سيجري لي. وكانت الكيسة هي التي استؤصلت وليس الزائدة والحمد لله.

في الحالة الموصوفة أعلاه شعرت بالعجز لأن:

- 1 - شيئاً سيئاً كان سيحصل لي.
- 2 - لم يكن بإمكانني عمل أي شيء لتفاديه على الرغم من علمي أنه مقبل.

فالعجز يتضمن دائماً الإحساس بخطر داهم على الشخص نفسه أو على أشخاص يحبهم، مع إدراك أن ليس هناك أي شيء يستطيع الشخص نفسه أن يفعله للمساعدة. كل أب أو أم أخذ ابنه أو ابنته إلى غرفة الإسعاف ورأى الطفل ينقل بسرعة على أيدي غرباء يرتدون ثياباً بيضاء، يعرف شدة العجز: المعرفة بوجود الخطر، وعدم المقدرة أو استحالة الإتيان بتصرف ملائم. العجز نوع من الشدة من النوع الثاني، إنها شدة عدم القدرة على الاستجابة للشدة.

أصبحنا نعرف الآن، بفضل عمل مارتين سيليجمان Martin Seligman وتلامذته ومساعديه، أن الارتكاس للعجز، والإحساس بأننا لا نستطيع مساعدة أنفسنا أو الآخرين، يمكن أن يكون مكتسباً⁽¹²⁾. فالأطفال، مثلاً، يستطيعون اكتساب الإحساس بالعجز، والإحساس بالخطر مع عدم القدرة على الإتيان بأي تصرف، حتى عندما لا تكون هذه هي الحالة.

هؤلاء الأطفال يصبحون منعزلين فاتري المهمة ولا مبالين ويبدون كمن فقد الدوافع التي تحثه على التعلم والتواصل مع الأطفال الآخرين.

وقد أجريت أبحاث كثيرة حتى الآن لتثبت أن الأشخاص عندما يعيشون أوضاعاً لا سيطرة لهم عليها فإنهم يميلون إلى الاستسلام والتصرف بشكل سيء. في إحدى الدراسات مثلاً تعرض الطلاب لضجيج يمكن تفاديه، أو لا يمكن تفاديه، أو لا ضجيج. بعد ذلك طلب منهم حل مسائل مثل الجنس التصحيقي مثل IATOP (PATIO) كان الطلاب الذين تعرضوا لضجيج لا مهرب منه أقل نجاحاً من الطلاب الذي تعرضوا لضجيج يمكن الخلاص منه أو لم يتعرضوا لأي ضجيج. يبدو أن الطلاب الذين وضعوا في وضع من لا حول له ولا قوة يحملون ذلك الموقف معهم إلى مواجهات أخرى.

تابعوا الحالة التالية التي سجلها سيلغمان:

في الساعات الأولى من صباح أحد أيام شهر شباط / فبراير 1971، ضرب زلزال كبير مدينة لوس أنجيلوس. عاش مارشال تجربة نموذجية لأي طفل في الثامنة من عمره في وادي سان فيرناندو، مركز الزلزال. فقد استيقظ في الساعة 45.5 ليجد نفسه في ما يشبه نفقاً للقطار، والقطار يتقدم باتجاهه. كانت الأرض تموج، فصرخ وسمع من الغرفة المجاورة صراخ والديه. وعلى الرغم من أن الزلزال دام ثلاثين ثانية فحسب إلا أنه بدا دهنراً من الرعب والأرض تميد تحت قدميه.

انقضت ثلاث سنوات وما زال مارشال يعاني من عقابيل
نفسية لذلك الصباح. لقد غدا جباناً، سريع التهيج، ترعبه
أبسط الأصوات غير المتوقعة. كان يجد صعوبة في
الاستغراق في النوم، وعندما ينام فإن نومه سطحي
ومتقلب، وكان يستيقظ في بعض الأحيان، وهو
يصرخ⁽¹³⁾.

كثير من الأطفال يصابون بالعجز المكتسب في المدرسة
عندما تواجههم مهارات تعليمية أصعب من مستوى إمكانياتهم.
فبعض الأطفال، مثلاً، يفشلون في تعلم القراءة لأن الطريقة
المتبعة في تعليم القراءة تضعهم أمام مهمة لا يستطيعون فهمها
أو الإمساك بناصيتها. بمواجهة هذه الظروف يتولد ارتكاس
العجز المكتسب وينسحب الطفل من أي شيء له علاقة
بالكتابة.

لم يبد فيكتور سرعة في الفهم عندما بدأ بتعلم القراءة
في الحضانة وفي الصف الأول. كان متحمساً وراغباً لكنه
لم يكن مستعداً بعد للربط بين الكلمات المكتوبة على
الورق والكلمات المحكية. بذل جهداً كبيراً في البداية، لكنه
لم يحرز أي تقدم، وكانت أجوبته، التي يلقيها كيفما اتفق،
خاطئة دائماً. كان كلما فشل أصبح أكثر تمهلاً في
المحاولة من جديد، وتضاءلت مشاركته في الصف شيئاً
فشيئاً. وفي الصف الثاني، وعلى الرغم من أنه كان
يشارك بحماسة في الموسيقى والفن، إلا أنه كان يكتئب
ويتجهم عندما تأتي حصة القراءة. أولته المعلمة عناية
خاصة لبعض الوقت ثم تركته وشأنه. فبحلول ذلك الوقت

كان حري به أن يصبح مستعداً للقراءة. لكن مجرد رؤية بطاقة الكلمات أو كتاب الإملاء كان يفجر لديه نوبة اكتئاب وعدوانية متحدية. وبدأ هذا الموقف ينتشر على بقية يومه الدراسي. وأصبح اتكالياً حيناً وشخصاً مزعجاً ومؤذياً حيناً آخر⁽¹⁴⁾.

ويمكن القول إن العجز المكتسب الذي وصفه سيلينغمان يقابل شخصية النموذج أ الأنفة الذكر. وكلاهما مبالغتان في ارتكاس القتال أو الهرب، وكلاهما صارم وقاس لا يلين. وإذا يواجه وضعاً مهماً لا سيطرة له عليه يخوض طفل النموذج أ المواجهة بينما طفل العجز المكتسب ينسحب انسحاباً كاملاً ويقر بعجزه. في كلتا الحالتين ليس هناك تقييم واقعي للوضع أو أي تفكير في البدائل. ونتيجة للشدة الناجمة عن الاستعجال قد يتكيف الأطفال مع أنماط من ردود الفعل مقبولة وسيئة التكيف تلازمهم وتصبح طريقتهم في الاستجابة للشدة في مرحلة الرشد.

تشكل سابق لأوانه

سُئل فرويد مرة عن مصير الصبية الماهرين الذين كانوا منتشرين يلمعون الأحذية في شوارع فيينا عند منقلب القرن. هؤلاء الصبية، الأذكاء المرتبطون بالشارع كانوا يعرفون كيف يُثيرون إعجاب زبائنهم فينفحونهم أجوراً عالية. فكر فرويد لحظة ثم أجاب: «لقد أصبحوا إسكافيين». يمكن القول إن هؤلاء الأطفال قد كبروا بسرعة وبالتالي لم يعودوا قادرين على

المضي أبعد من ذلك. لقد تكونت شخصياتهم في وقت مبكر جداً، لم يترك حيزاً لمزيد من النمو والتفاوت في الشخصية.

أكثر ما يلحظ التشكل المبكر لدى الأطفال الذين دربوا من سن مبكرة على إحدى الرياضات أو فن التمثيل. ما يحدث غالباً هو أن الطفل يغرق في التخصص في فترة مبكرة جداً لدرجة أن أجزاء أخرى من شخصيته لا تتطور. حتى أن بعض أبطال التنس الذين دربوا منذ طفولتهم ليصبحوا أبطالاً، لا يستطيعون أن يتحدثوا في أي شيء سوى التنس. والراشدون الذين بلغوا في تخصصهم كأطفال يتصرفون بشكل غريب عندما يصبحون كباراً راشدين: وخير مثال على ذلك مايكل جاكسون Michael Jackson والجراحة التجميلية التي أجراها، وصديقه القرد الكبير.

وما كل استعجال للأطفال في الرياضة أو فن التمثيل يؤدي بالضرورة إلى تشكل سابق لأوانه وتقليص للشخصية. وخير مثال على ذلك هو ايهودي مينوهين Yehudi Menuhin الذي عزف مقطوعات صعبة مع أوركسترات سيمفونية كبيرة وهو في السابعة. لقد حباه الله موهبة وأبوين يقدمان مستقبله المهني وحاجاته على حاجاتهما ولكن دون الدافع الاستغلالي بتحقيق ذاتهما من خلال ابنهما. كما كان ينعم

بمعلمين مخلصين وموهوبين بشكل استثنائي. هؤلاء المعلمون كانوا من كبار الفنانين الممثلين في تلك الفترة، وكانوا

يودون لو يتوقفوا عند منزله ليضبطوا أوتار كمانه .

ولكن الأطفال العباقة ليسوا دائماً محظوظين هكذا فالطفل المعجزة قد يخبو أو قد يصبح نجماً . « مثال على ذلك في السنوات الأخيرة ليليت غامپيل Lilit Gampel . ففي عمر الثانية عشرة عزفت ليليت كونشرتو لماندلسون مع فرقة بوسطن بوبس وعرض الحفل تلفزيونياً مما أكسبها عقداً مع إدارة فنانى كولومبيا Columbia Artists Management وعشرة ارتباطات مع أوركسترات سيمفونية في أوروبا والولايات المتحدة . لكن كان السفر بالنسبة لطفلة كاليفورنيا المعجزة ، والزيارات المنتظمة لأستاذ جديد في نيويورك ، هو الراحل إيثن غلاميان Ivan Galamian ، أكثر مما يطاق . فترجع عزفها ، وتناقص عدد الحفلات التي تشارك بالعزف فيها ، وتوترت علاقاتها مع والديها الطموحين حتى أن قبولها في جوليارد Julliard في منحة كاملة لم يفلح في إخراجها من حالة التداعي والهبوط . يقول زملاء أيام العروض إن بريق ليليت خبا لولا مهمة محددة مع أوركسترا صغيرة في نيو جيرسي»⁽¹⁵⁾ .

حالة أكثر مأساوية هي حالة كريستيان كرينز Christian Kriens . كان كرينز ، الطفل المعجزة الألماني الشهير ، متفوقاً في قيادة الفرقة الموسيقية والتأليف إلى جانب العزف على الكمان والبيانو ، لكن كل ذلك أوصله في النهاية لأن يصبح فارس الاسطوانات في هارتفورد ، حيث أقدم على الانتحار وهو في أوائل العشرينيات من عمره»⁽¹⁶⁾ .

بعض الشدات التي يعيشها الأطفال الذين يحققون إنجازاً مبكراً تتضمن التضارب بين المدرسة ووقت التمرين والمقابلات المتواصلة مع الصحافة. وقد قال هوارد غاردنر Howard Gardner من جامعة هارفارد إن كل طفل من أطفال المعجزة يعيش ما أسماه «أزمة منتصف العمر لدى طفل المعجزة». فطفل المعجزة يدفعه الفضول إلى التمثيل، كما يدفعه تحدي المعرفة، وموافقة الأبوين. ولكن عندما يصبح مرافقاً يبدأ بطرح أسئلة مثل: «لماذا أنا افعل هذا، ولأجل من؟ وقد يقرر بعضهم أنه لا يريد الضغط وله الحق في ذلك. بينما يقرر آخر الاستمرار، ولكن على طريقته الخاصة»⁽¹⁷⁾.

كان التكون السابق لأوانه شائعاً بين أوساط الأسر ذات الدخل المحدود، إلى احتمال أن يعمل الوالدان فيها أكثر من الأسر التي تعيش في كنف أحد الوالدين دون الآخر، كما أن تلك الأسر ليست حريصة كل الحرص على المدرسة. وكثيراً ما يبدأ أطفال الأسر ذات الدخل المحدود بالعمل في سن مبكرة، ويستقلون بأنفسهم في سن مبكرة، ويتزوجون وتصبح لديهم أسرة في سن مبكرة أيضاً. ذلك أمر مقبول بالنسبة للناشئين من ذوي الدخل المحدود لأنهم يلمسون الحاجة للاعتماد على أنفسهم، والعمل، وما إليه.

ولكن الآن أصبحت معظم الأسر المتوسطة الدخل تعيش في كنف أحد الوالدين دون الآخر، وكثير من الأسر المتوسطة الدخل يعمل الوالدان فيها. لذلك فإن أطفال الأسر المتوسطة

الدخل يستعجلون الآن كي يكبروا بسرعة، ويتكونون بشكل سابق لأوانه، للأسباب نفسها التي تجبر أطفال الأسر ذات الدخل المحدود على ذلك - ألا وهي الحاجة الأبوية. إلا أن الحاجات الأبوية للوالدين المتوسطي الدخل تختلف عن حاجات الوالدين ذوي الدخل المحدود، فهم ليسوا بحاجة لأن يقوم أطفالهم ببعض الأعمال الخفيفة أو لأن يكسبوا مالاً. فطفل الأسرة المتوسطة الدخل مدعوم مادياً لكنه مستعجل اجتماعياً وثقافياً ليخدم حاجةً والديةً عاطفية، وليس حاجةً والديةً مادية. ومثل طفل المعجزة، يعلق الطفل المستعجل أهمية على المراهقة ويسأل: «ماذا أنا فاعل؟» و «لماذا أفعل ذلك؟» إذا كانت الإجابة أن ذلك من أجل الوالدين وليس النفس، فإن الناشئ قد يثور بطرق مختلفة، كأن يهرب، أو يتعاطى المخدرات أو يتخلف عن المدرسة، أو يصبح جانحاً، أو أن يرفض الانصياع. في جميع الحالات إنما يقدم الناشئون دليلاً على أن التكوين السابق لأوانه، واستعجال النمو إرضاء لحاجات الأبوين الأنانية دون الاهتمام بالحاجات الخاصة للناشئين، أمور غير مقبولة.

المنيعون

عندما كنت أعمل مع محكمة الأسرة في دينغر بولاية كولورادو، ثم في روتشستر بولاية نيويورك، كنت أتعامل بشكل رئيسي مع الأطفال والشباب الجانحين. كان متاح لي أحياناً رؤية الأسرة كلها، الأمر الذي فاجأني في بعض

الأوقات. فقد رأيت مرة فتاة في الرابعة عشرة تتصرف بشكل غير لائق. كانت الأم بدينة، تعيش على الضمان الاجتماعي. والأب اختفى منذ زمن بعيد. إلا أن الأخت الصغرى، وهي في العاشرة من عمرها، كانت تتقدم بشكل جيد، وتحصل دائماً على درجات عالية في المدرسة وكانت موضع إعجاب معلمها وأندادها.

مثل هذه الطفلة لا تحظى باهتمام الأبحاث النفسانية والمتعلقة بطب النفس التي تركز على الباثولوجيا (علم الأمراض) أكثر من تركيزها على الصحة. وقد كتب لويز مورفي Lois Murphy في سنة 1962 :

يثير الاستغراب أن تكون أمة ابتهجت لتوسعها السريع ومنجزاتها العلمية والتقنية قد طورت في دراساتها حول الطفولة هذا الكم من المؤلفات عن المتاعب... إن لغة المتاعب والمشاكل والنقص والسلوك غير الاجتماعي والانعزالي، أو التناقض الوجداني والقلق لغة مألوفة. ونحن نعرف أن هناك وسائل لتصحيح أو تجاوز أو التغلب على الأخطار، ولكن معظمها لم يدرس بشكل مباشر⁽¹⁸⁾.

في الواقع لقد استعجلت المهن المساعدة أيضاً الأطفال نحو تصنيفات من علم الأمراض والاضطرابات كانت في السابق وقفاً على الراشدين.

ولكن شهد العقدان الأخيران اهتماماً متزايداً بأولئك

اليافعين الذين يستجيبون إيجابياً للشدة. وقد برز في هذا المجال الطبيب النفساني أي. جي. أنثوني E. J. Anthony من جامعة سانت لويس وعالم النفس نورمان غارمزي Norman Garmerzy من جامعة مينيسوتا. وكلاهما كان في البداية مهتماً «بالأطفال المعرضين للمخاطر» - أولاد الآباء الفصامين الذين كانوا أكثر عرضة من أولاد الآباء غير الفصامين لتطور أعراض مرض عقلي. وقد لاحظ الباحثان أن بعض اليافعين الذين، بجميع معايير علم النفس والطب النفسي السريري يجب أن يكونوا مرضى، لم يكونوا كذلك. ثم بدأ الباحثان بدراسة أولئك الأطفال عليهما يكتشفان بعض المعلومات التي تفيد في فهم الطرق المجدية للتعامل مع الشدة الطاغية.

الحالة التالية التي وصفها الدكتور غارمزي تقدم مثلاً على ذلك:

في الأحياء الفقيرة في مينيابوليس كان هناك صبي في العاشرة يعيش في شقة خربة مع والده. وهو مجرم سابق يموت الآن بالسرطان، ووالدته، وسبعة أشقاء وشقيقات اثنان منهم متخلفان عقلياً. إلا أن مدرسيه قالوا إنه طفل لديه مقدرة غير عادية وهو متفوق في دروسه ويحبه جميع من في المدرسة⁽¹⁹⁾.

كما يتحدث الدكتور أنثوني عن ردود الفعل المختلفة لثلاثة أطفال كانت والديهم الفصامية تعتقد أن هناك من يدس السم في الطعام في المنزل. كانت الابنة الكبرى، وهي في

الثانية عشرة تشاطر أمها مخاوفها وترفض أن تأكل إلا في المطاعم. الطفل الأوسط، الذي كان في العاشرة من عمره، كان يرفض أن يأكل في البيت أيضاً - إلا عندما يكون والده هناك. لكن الولد ابن السبع سنوات كان يأكل في البيت يومياً. وعندما سأله أنثوني كيف يستطيع أن يفعل، رفع الولد كتفيه قائلاً: «أنت ترى أنني لم أمت بعد». لقد كان منيعاً. لكن شقيقته أصبحت في النهاية عصابية كوالدتها. أما الطفل الأوسط فبقي عاقلاً وأفلح لحد ما على الرغم من بعض أعراض سوء التكيف التي كانت تظهر لديه بين وقت وآخر. أما الصبي فكان له مستقبل مهني لامع. يقول أنثوني «إن مرض والدته أمده بحاجة ماسة إلى التغلب على العقبات، والتكيف مع المشاكل، يبدو أنه كان يرى في بيئته نوعاً من التحدي».

ما الذي يمكن هؤلاء اليافعين من التكيف الجيد مع الشدة؟ يتحدث الباحثون عن خمس صفات أساسية:

1 - المقدرة الاجتماعية: يبدو المنيعون مرتاحين مع الأنداد والراشدين ويجعلون الآخرين يرتاحون لهم. وكأنهم قد اتبعوا دورة لدى ديل كارنيجي Dale Carnegie حول «كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس».

2 - التحكم بالانطباع: يستطيع المنيعون طرح أنفسهم أشخاصاً لاعمين يحظون بالإعجاب. ويبدو أنهم يحبون الكبار حقاً، ليس بطريقة اتكالية وإنما بطريقة توحى أن لديهم الكثير ليتعلموه ولديهم الاستعداد لذلك. إنها تبعية بكبرياء تعطيهم

جاذبية وتكسبهم رعاية الراشدين كموجهين ناصحين .

3 - **الثقة بالنفس** : هؤلاء الأطفال لديهم إحساس بمقدرتهم على التحكم بحالات الشدة . وبالتالي فإنهم يرون في المشاكل تحدياً أكثر مما هي مدعاة عجز . ويتحدث غارمیزی عن طفلة كانت تصنع «شطائر الخبز» لتعطي نفسها مظهر من يتناول وجبة . وأصبحت «شطائر الخبز» تورية تلجأ إليها كلما اضطرت إلى التكيف مع مشكلة عويصة ، إذ تقول : «أعتقد أن علي أن أحضر شطيرة خبز» .

4 - **الاستقلال** : الأشخاص المنيعون استقلاليون لا تزعزعهم آراء الآخرين . وهم يفكرون لأنفسهم ولا يشينهم عن تصميمهم السلطة ولا السطوة . وغالباً ما يجدون لأنفسهم مكاناً يجدون فيه الخصوصية والسلام وفرصة خلق بيئة تلائم حاجاتهم ومصالحهم .

5 - **الإنجاز** : الأشخاص المنيعون منتجون . إنهم يحصلون على علامات جيدة ، ولديهم هوايات ، يكتبون الشعر ، وينحتون ، ويرسمون ، ويقومون بأعمال النجارة وما إليها . كثير منهم أصيلون ومبدعون . وكثير منهم يرسخون مصالح مركزة في سن مبكرة . ربما ، لو أنهم ولدوا لأسرة مختلفة لكانوا أطفالاً معجزة . لكن ولادتهم في أوضاع بيتية مليئة بالشدة تحول بعض قواهم ومواهبهم نحو المهمة الأكثر أهمية ، وهي البقاء .

لقد بدأنا نتلمس العوامل التي تجعل لبعض الأطفال روحاً

قاسية تواجه اختبار الشدة القاسي . هذه العوامل تمكننا من اقتراح طرق لمكافحة الشدة لدى جميع الأطفال . لكننا نعرف أيضاً أن الأطفال المنيعين قد يكونون أطفالاً موهوبين ربما كان لديهم مستقبل مهني مرموق في ظل ظروف مختلفة . أولئك الأطفال يقدمون خير مثال على تداخل الطبيعة والتربية . ففي بيئة مواتية يكون الطفل اللامع موهوباً ، أما عندما تكون البيئة غير مواتية ومولدة للشدة فإن الطفل يكون منيعاً .

هذه بعض طرق استجابة الأطفال للشدة التي يسببها الاستعجال . ولم يعد بالإمكان إعادة الكرب العاطفي واضطراب السلوك إلى النزاع فحسب . فالأطفال الذين يعانون من الكرب اليوم لابد أن ينظر إليهم ، وتقيم حالتهم ، ويتلقون المساعدة ، ضمن إطار شامل لبيئة تولد الشدة . والأطفال الذين نستقبلهم في العيادة اليوم أشبه بضحايا صدمة القذائف في المعركة منهم بأطفال أمس العصائيين . ويمكن القول إن الحرب بالنسبة للكبار مثل الاستعجال بالنسبة للأطفال - شدة هائلة تتسبب بكثير من الأذى وقليل من الخير .